الحاجة إلى الإيمان باليوم الآخر

لما ثبت بما قدمناه من الأدلة أن الآخرة ممكنة الحدوث، وأن البحوث النفسية والروحية مؤيدة لهذا الاعتقاد، نبيّن الآن أن العالم في حاجة إلى الإيمان باليوم الآخر، ويتضح هذا في الجوانب الآتية[1]:

١ ـ الجانب النفسي:

أن أمل الإنسان في الحصول على حياة مفضلة، في عالم حر مثالي مليء بالأفراح، مستقل عن حدود هذا العالم ومشاكله، دليل نفسي قوي على الحاجة إلى وجود عالم آخر، كالظمأ فهو يدل على الماء، وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الإنسان.

ثم إن هذه العقيدة موجودة منذ أقدم العصور ـ كما سيأتي بعد قليل ـ فلو كانت هذه العقيدة باطلة لما أثرت على البشر بهذا الشكل المدهش، إذ أننا لا نجد فكرة إنسانية واهية ظلت باقية إلى العصر الحاضر بهذا التسلسل الرائع.

٢ ـ الجانب الأخلاقي:

إن فطرة الإنسان تميز بين الظلم والعدل، وبين الصالح والطالح، وهذه الفطرة هي التي تميزه عن سواه، ولكنه يهدر هذه الفطرة فيقتل بني جنسه ويشردهم، والجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والعدوان، وصحفنا اليومية التي تتحدث عن الاغتيالات، وجرائم الخطف، والنهب، والاتهامات الكاذبة، والدعايات الباطلة، وسحق الشعوب، ما هي إلا صورة مصغرة لما يحدث كل يوم في الأرض. لكن دواعي العدالة والإنصاف في الضمير الإنساني تؤكد أن هذا العالم ناقص في حد ذاته، وهذا النقص في ذاته يقتضي ما يكمله. فلا بد من يوم يميز بين الحق والباطل، ولا بد أن يجني الظالم والمظلوم ثمارهما، فلا يعقل أن المؤمن المحسن المطيع الذي لم يحصل على أجره في الدنيا يخسره، فتذهب مجاهدته لنفسه هدراً، فلا بد أن يدخر له في الآخرة، ويناله ثوابه.

ولا يعقل أن الله تعالى يترك العابث الفاجر الظالم سادراً في غيه، يعيث في الأرض الفساد، ويقهر الآخرين، دون أن يناله العقاب، فيقتص منه لمَن ظلمه، وهذا

---

(١) الكلام عن الحاجة إلى الآخرة في: الإسلام يتحدى ص٨٢ وما بعدها.

العقاب إن لم ينله في الدنيا فإنه يناله لا محالة في الآخرة يوم الحساب، وفيه ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١] وإلا لزم الظلم بالنسبة لله تعالى، إذا ترك محاسبة الظالم، ومكافأة المطيع. والظلم محال على الباري ﷻ.

فالإيمان باليوم الآخر يجعل رقابة المرء على نفسه مستديمة، ويوفر السكينة والطمأنينة في القلوب، فيشعر المؤمن بأن الدنيا متاع الغرور، يزهد فيها، ولا يتكالب عليها، ليستأثر بما يريد، وإن أضرّ بمصلحة الآخرين، فتكون عندئذ غاية الحياة سامية، وهدفها رفيعاً، وهو: عمل الخير، وترك المنكر، والتحلي بكل فضيلة، والتخلي عن كل رذيلة.

ومن هنا استعان القرآن الكريم بهذه العقيدة للدعوة إلى الفضائل، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فقرن أمره بتقوى الله بلقائه في الآخرة، لترسيخه في النفس.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فقرن الإنفاق في سبيل الله بإيفائه لهم في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١] فقرنَ تحبيبهم الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، ودعوتهم إلى تحمل الأذى، بتخويفهم من نار جهنم.

وقد عني القرآن الكريم بترسيخ هذه العقيدة في ذهن الإنسان، وجعلها هي الخير والأبقى، وأن الحياة الدنيا دار فناء، والساعي وراءها مغرور بمتعها ولذائذها الزائلة.

قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

٣ ـ السلوك:

من الأمور التي شغلت الذهن البشري طويلاً هو كيفية إجبار الناس على سلوك طريق الحق.

قد يحقق الإنسان ما عهد إليه من أمور خشية العذاب الذي ينتظره، إن لم يقم به على الوجه المراد، ولكن ما الذي يدفع المتمتع بالسلطة السياسية إلى تحقيق العدل؟ ومَن يقمع انحراف الإنسان إن لم يجد له رادعاً؟ أو كان في غفلة عن المسؤولين إن مارس الظلم أو الرشوة، أو التزوير أو استغلال النفوذ. . .؟

الحق أن هذا الانحراف لا يقمعه سوى الدافع المنبعث من نفس الإنسان، وهو الضمير. وهذه الميزة غير متاحة إلا في عقيدة الآخرة، إذ أن الإنسان يشعر بأن الله تعالى يراه أينما كان، ويحاسبه حساباً عسيراً.

قال ڤولتير: (إن أهمية الإله والحياة الآخرة عظيمة جداً، حيث أنهما أساسان لإقامة المبادىء الأخلاقية).

ويرى: أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع، ولو أن هذه العقيدة زالت، فلن نجد دافعاً للعمل الطيب، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي).

فلو كانت الحياة الآخرة فكرة خيالية، فلماذا لا نستطيع إقامة نظام اجتماعي سليم بدونها؟ وهل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية في الحياة؟

فالحاجة الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة، وإقامتها على أسس عادلة حقيقية، هي في حد ذاتها تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون، وهذا دليل منطقي واضح على أحقية الإيمان بها.

٤ ـ الضرورة الكونية:

بعد أن أقمنا الأدلة على وجود الله تعالى وأنه خالق الكون نقول: لا بد أن تكون هناك علاقة بين الإله والإنسان، ولا بد من ظهورها، لأن العقل يستنكر إلهاً لا علاقة له بأمور الكون، ولا يشهده عباده في مظهر الخالق. ولكن متى تظهر هذه العلاقة بصورة جلية؟

يمكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر في الحياة الدنيا، فهذا الملحد يقول: إني لا أخاف الله، ثم نراه يحصل على الرئاسة أو لا يصاب بأذى. . . والمؤمن قد ترد دعواه بحجة أنها غير شرعية.

فهنا إما أن نؤمن بوجوده أو ننكره، فإن آمنا به فلا بد من أن نؤمن بالآخرة، وفي الآخرة فقط تظهر آثار الربط بين الخالق والمخلوق بجلاء، حيث الحساب فالثواب والعقاب الذي يلقى الإنسان في مثواه الأخير.

إذ أن الخالق لهذا الكون العظيم لا يمكن أن ينهيه دون إبداء الأسباب التي دفعته إلى هذا الخلق، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة.